

الصحافة في البلاد العربية

من الأحاديث التي رويت عن النبي عليه السلام - حديث يلخص دستور السياسة والاجتماع في كلمات معدودة . وهو قوله عليه السلام : « كما تكونوا يول عليكم » .

ومن آيات الصدق في هذا الحديث الحكيم ، أنه يصدق على كل حالة اجتماعية تتمثل فيها صفات الأمم ، ولا يقف عند مشابهة الحكام للمحكومين أو مشابهة نظام الحكومة لأطوار الأمة وأخلاقها .

ففى وسعنا على هذا القياس أن نقول « كما تكونوا تكن صحافتكم » ونحن صادقون في القول ، لا نعدو به حدود الواقع الملموس .

لأن الصحافة تابعة للأمة التي تعيش فيها ، وليست بسابقة لها ولا مترقية عليها .

وإذا اتفق في موقف من المواقف النادرة أن تقدمت الصحافة على أمتها فتلك ولا ريب عارضة لا تدوم . لأن الصحافة إذا تقدمت أمتها على الدوام انقطعت عنها ، وليس في وسع صحيفة من الصحف أن تنقطع عن قارئها وعن البيئة التي تكتب لها ،

وهى مضطرة إلى الرجوع إليها يوماً بعد يوم ، -أو أسبوعاً بعد أسبوع ، أو شهراً بعد شهر ، كما تضطر جميع الصحف اليومية والمجلات الدورية .

قد يستطيع الكاتب أن يسبق الأمة بكتاب لأنه يصدر مرة واحدة أو بضع مرات ، وقد ينتشر بين أفراد الأمة لأنه يغضبها ويخالف أهواءها ، كما ينتشر بينهم لأنه يرضيها ويوافق مزاجها . أما أن يسبق الكاتب أمته بصحيفة دائمة فذلك أمل عسير ، يستبعده العقل ، كما تدلنا التجربة الواقعة على أنه بعيد - جد بعيد .

فإذا سألنى سائل - كيف تريد الصحافة فى البلاد العربية ؟ قلت - كما أريد البلاد العربية واختصرت بذلك مراحل الطريق .

إن الصحافة المثلى هى صحافة مستقلة فى آرائها ، مخلصه فى نصائحها أمينة فى أداء رسالتها ، خادمة للثقافة والأخلاق فيما تنشره من موضوعاتها وأخبارها .

وفى مقدورك أن تؤدى هذه الشروط بعبارة أخرى مرادفة لها كل المرادفة وهى أن الصحافة المثلى هى صحافة الأمة المميزة الرشيدة .. والتميز فى الأمم ثمرة من ثمرات التعليم والفترة المستقيمة . فإذا كانت الأمة متعلمة قوية الفترة فلا تشترط فيها شروطاً للصحافة لأنها لن تروج فيها إذا هى خالفت شروط

الاستقلال والأمانة ، والخدمة القومية التي تقدم مصلحة الوطن على مصالح الأحزاب والأفراد .

في الأمم التي يعوزها العلم والدراية السياسية يصدقون الرأي الأعوج ويكذبون الرأي المستقيم ويقبلون الباطل السخيف ويعرضون عن الحق المبين . لأن تمييز الحق يحتاج إلى كفاءة ذهنية وفضيلة خلقية ولا يصل إليه المرء إلا بعد الموازنة بين الأسباب والمقابلة بين الأسانيد والبراهين والرجوع إلى المعلومات والسوابق الماثورة . أما قبول الباطل فلا يحتاج إلى شيء من ذلك .. كل ما يحتاج إليه جهل وكفى .. والجهل لا يتعلمه الجهلاء بعناء .

وفي الأمم التي يعوزها العلم والدراية الفطرية تستعر الخصومات الحزبية وتتجاوز الحدود ، لأن الرأي العام لا يحسن الحكم الفاصل بين الخصوم ولا يدرك حقيقة الدعاوى والأقاويل ، فلا تزال الخصومات قائمة ، ولا تزال الأباطيل شائعة والحقائق مجهولة ولو عرضت هذه الخصومات على جمهور يفتن إلى صوابها وخطئها لقضى على الخطأ وأخذ بناصر الصواب في ساعة ظهوره . فأراح نفسه وأراح المختلفين من الحاجة الخلاف .

ونحن نلمح أثر التقدم في صحافتنا كلما لمحنا أثر التقدم في أقوامنا وجماهيرنا فنحن اليوم خير مما كنا بالأمس ، ونحن

غداً - فيا نرجوه - خير مما نرانا اليوم .
ولا يخطيء المتعجلون فيقولون - إن صحافة أمس لم تكن
تعرف كل هذا التنايد بالتهم والأكاذيب بين الأحزاب ،
إذ الواقع أنها كانت خلواً من ذلك لأن البلاد كانت خلواً من
الأحزاب وكانت سياستها في أيد غير أيدي أبنائها ، فلما أخذت
في الاستقلال بشئونها والتنافس على زعامتها كانت العوارض
الحزبية فيها علامة من علامات التقدم واليقظة ، ولم تكن علامة
من علامات النقص والرجوع إلى الوراء .

إننى صحفى ، ولكننى لا أبالغ فى رسالة الصحافة ولا أؤمن
بأن الصحافة وحدها كافية للقيام بأمانة الثقيف والهداية ،
ولو ارتفعت الأمة إلى أرفع مراتب الأدب والتعليم .

ففى الأمم التى بلغت غايتها من العلم والتربية ، تؤق
الصحافة من آفة التقدم لا من آفة الجمود ، وتصاب من ذيوها
بعد أن كان الخطر كل الخطر أن تصاب من ضيق النطاق .

لأن الصحافة إذا انتشرت تعددت وتفرعت وظهرت لكل
حزب صحيفة ولكل جماعة من الأمة لسان ينطق بما تريد . ويتفق
كثيرا فى هذه الحالة أن تقرأ الجماعة صحيفتها ولا يتسع لها
الوقت لقراءة الصحف الأخرى ، فيفوتها أن تحيط بوجهات

النظر كلها وتسمع أبدا من جانب واحد ، ولا تسمع من الجانب الذى يعارضه ويصحح أخطائه .
وهذه آفة الارتقاء والانتشار .

وإلى جانب هذه الآفة آفة أخرى تظهر لنا قصور الصحافة عن الاستقلال بأمانة التثقيف والهداية ، فهي على أحسنها وأفضلها لا تغنى عن ثقافة الكتاب لأن الطبيب مثلا يقرأ كتاباً ليستوفى البحث فى مسألة من مسائل علمه ، ولكنه لا يعتمد على الصحيفة لأنها تنشر من حين إلى آخر فصلا فى الطب من هنا وفصلا فى الطب من هناك .. ويقال فى الأديب والفنان والمهندس والفقير ما يقال فى الطبيب .

فمهما يبلغ من ارتقاء الصحافة غداً فى بلادنا العربية ، فلنحسب حساباً لهذا القصور الذى يلزم الصحافة فى أرقى البلاد ، ولنعلم أنها لن تنفرد وحدها بتكوين الآراء الصحيحة . ولا بد لنا من وسيلة غير الصحافة لدراسة المسائل العامة من جوانبها المتعددة أو لاستيفاء البحث فى شئون الثقافة وقضايا الاجتماع . وقد تيسر لنا هذه الوسيلة من طريق الكتاب ، وطريق المذيع ، وطريق الصور المتحركة فى بعض المناظر والروايات .

* * *

إذا كانت الصحافة لا تسبق الأمة دائماً فهي قادرة على أن

تسبقها في بعض الأوقات .

وإذا كانت لا تعدو أمامها بخطوات فساح ، فعليها أن تمشي معها وفي مقدمة صفوفها ، ولا تمشي وراءها أو تقعد مع الخوالم في آخر الصفوف .

وإذا كانت الصحافة تروج بمخاطبة العدد الأكبر من الغوغاء - فهي لا تخسر إذا خاطبت النخبة القليلة من الممتازين . بل تجمع بذلك زينة الاحترام إلى منفعة الرواج . ولهذا يقع اللوم كثيرًا على الصحفي العربي الذي يتوانى عما يستطيعه وهو غير عسير .

إنه لا يستطيع أن يسبق أمته في كل نسخة من الصحيفة ولكنه يستطيع أن يسبقها في بعض الأيام .

وهو لا يستطيع أن يهمل حساب الدهماء ، ولكنه يستطيع أن يحسب حساب النخبة الفضلاء .

وهو لا يستطيع أن يثابر على المسير أمام الصفوف ولكنه يستطيع أن يتجنب المسير في الصف الأخير .

والعاملون بالواجب الصحفي في هذا الصدد ثلاث طبقات : طبقة محمد وطبقة تعذر وطبقة تلام .

فالطبقة التي محمد - ويا للأسف قليلة .

والطبقة التي تلام - ويا للأسف - كثيرة .

والطبقة التي تعذر وسط في القلة أو الكثرة بين الطبقتين .

ولا نطيل في التمثيل والاستشهاد . فيكفى أن نشير إلى معارض الآداب والعلوم والفنون في الصحافة الغربية ونشير إلى أمثال هذه المعارض في صحافتنا الكبرى أو الصغرى على السواء . فهنا في الشرق تحيا الآداب والعلوم حياتها بمعزل عن الصحافة كلها . حتى لو اعتمد المؤرخ على الصحافة وحدها في تسجيل حركتنا الثقافية لخرج من صفحاتها جميعاً صفر الوطاب ، على خلاف صحافة الغرب التي تتابع كل حركة أدبية أو فنية ، وتعنى بتخصيص الملاحق القيمة للنقد والدراسة والتلخيص ، فلا يعيب المؤرخ أن يرجع إليها ويعتمد عليها في الإلمام بالنهضة الثقافية على أى عهد من العهود .

إن الإصلاح في الشرق عسير أو لا يزال حتى اليوم أعسر مما ينبغي أن يكون .

وإذا كان بعض الصحف عوناً على الإصلاح فبعضها عقبة في طريق كل إصلاح ... بل هي نفسها آفة من الآفات التي تحتاج من أجلها إلى جهود المصلحين .

والشرق كما نعلم موطن الأنبياء والهداة ودعاة الإصلاح . ونحن بهذا نفخر ومنه نستمد الثقة والعزاء .. ولكننا كلما فخرنا بأنبياء الشرق وجب أن يكون الجهر بالصدق من مفاخرنا الأولى ، وعظمة لنا ولا ريب أن يكثر بيننا الصالحون للنبوة ، ولكن لولا صعوبة الإصلاح لما كثر الأنبياء ، ولولا المحتاجون

إلى العلاج لما كثر الأطباء ، ولولا سهولة الضلال في الطريق لما
تتابع الإدلاء .

هذا الإصلاح العسير هو الحقيقة التي نذكرها كلما ذكرنا
عيوب الصحافة وما وراءها من عيوب الرأي العام . فنحن
نطلب من جمهرة الأمة أن تصلح الصحافة ونطلب من الصحافة
أن تصلح جمهرة الأمة ، ونبحث عن الذين يصلحون الفريقين معاً
فإنهم أقل الدعاة أعوانا في بلادنا .. لأنهم لا يرتفعون إلى
مراتب الأنبياء ولا ينطقون بلسان السماء ومن كذب على السماء
بدعواه فهو محتال يبتلينا ببلاء جديد ولا يعصمنا من البلاء
المقيم .

على أن الزمن ماض في طريقه والإصلاح يمضي مع الزمن على
هينة ورفق تارة ، وتارة على سرعة وشدة ، ويمشيتنا في حين وعلى
غير مشيتنا في أحيان . وسنبليغ ما نرضاه من العلم والهداية فتبلغ
الصحافة ما يرضينا من الأمانة والسداد .

أما اليوم فحسبنا أن نريد منها ما يكون وأن نريد منها
ما تستطيعه حيث تشاء ..

فإن عز عليها أن تسبق هوادي الأمة فلا ترجع إلى أذناها ،
ولتجاوز خطاها كلما تأتي لها أن تتجاوزها ، ولتنظر إلى قلتها كما
تنظر إلى سوادها .. وإذا كانت مرآة تعكس ما يقابلها فلا تكن
من تلك المرايا التي تطيل القصير وتقصّر الطويل أو تسمن

الأعجف وتعجف السمين ، أو تشوه كل ما تراه من جميل وديميم
فتلك هي مرايا الملاهى والمهازل التى يتسلى بها الفارغون . أما
المرايا التى تلزمننا للجد والزينة ، فهى التى تصف للعين كل
ما تراه على سوائه فنهتدى بها إلى العيوب كما نهتدى بها إلى
الحسنات .